الفصل الأول
أسطورة الأرض الموعودة

المرجعية النصية لأسطورة الأرض الموعودة

إن مفهوم " أرض الميعاد " مفهوم روحي المعنى ، رمزي الدلالة عند أحبار اليهود وعلماء اللاهوت وقد ظل هكذا طوال التاريخ اليهودي ولكن مع ظهور الصهيونية في القرن العشرين ، قد فُسِّر هذا المفهوم تفسيرًا سياسيًّا مُشوَّها لا يَمُت للأصل بصلة .

فقد ادَّعى اليهود الصهاينة أن " يهوه " إلههم قد وعدهم بتملك أرض العرب التي تمتد من نهر مصر إلى الفرات وأن عليهم أن يعملوا على تحقيق هذا الوعد بأنفسهم ، وألا ينتظروا الماشيخ المخلص لكي يحقق لهم هذا الوعد ، وقد قام الصهاينة بالفعل بإقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، وأرغموا يهود الشتات – بالتحالف مع النازية – على الهجرة إلى فلسطين ، غير عابئين باعتراض اليهود الروحانيين على ذلك .

وهاك هي النصوص التوراتية التي اعتمد عليها الصهاينة في إثبات هذه المزاعم الباطلة .

" ٢٠وَاشْتَغَلَ نُوحٌ بِالْفَلاحَةِ وَغَرَسَ كَرْماً، ٢١وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خَيْمَتِه، ٢٢فَشَاهَدَ حَامٌ أَبُو الْكَنْعَانِيِّينَ عُرْيَ أَبِيه، فَخَرَجَ وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ اللَّذَيْنِ كَانَا خَارِجاً. ٢٣فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ رِدَاءً وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا الْقَهْقَرَى إِلَى دَاخِلِ الْخَيْمَةِ، وَسَتَرَا عُرْيَ أَبِيهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَدِيرَا بِوَجْهَيْهِمَا نَحْوَهُ فَيُبْصِرَا عُرْيَهُ. ٢٤وَعِنْدَمَا أَفَاقَ نُوحٌ مِنْ سُكْرِه وَعَلِمَ مَا فَعَلَهُ بِه ابْنُهُ الصَّغِيرُ ٢٥قَالَ: «لِيَكُنْ كَنْعَانُ مَلْعُوناً، وَلْيَكُنْ عَبْدَ الْعَبِيدِ لإِخْوَتِه». ٢٦ثُمَّ قَالَ: " تَبَارَكَ اللهُ إِلَهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُ. ٢٧لِيُوْسِعِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي خِيَامِ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُ"(التكوين:٩)

وبهذا اختصت التوراة " سام " من ولد نوح بتعبيد كنعان له ، وباستيطان أرضه .

وماذا فعل حام أبو كنعان حتى يستحق هو ونسله هذه العقوبة الأبدية ؟!

أ ليس الخطأ خطأ نوح – حسب رواية التوراة – ؟ فهو الذي عَبَّ من الخمر حتى غاب عن الوعي ، ونام وانكشفت عورته وعندما رآه ابنه الصغير " حام " على هذه الحال المذرية خجل منه وأخبر أخويه الكبيرين حتى يسترا أباهم .

فلماذا حُكِمَ عليه بهذا الحكم الأبدي هو ونسله إلى يوم القيامة ؟!

وإن كان " حام " قد أخطأ – فرضا – فما ذنب نسله ؟!

وكيف تزر وازرة وزر أخرى ؟!

وكيف يُأخذ شخص بجريرة أبيه ؟!

بل كيف يأخذ ما لا يحصى من البشر – من لدن حام إلى يوم القيامة - بجريرة جد رأى أباه السكير عاريًا ؟!!

إن أكثر الناس ظلمًا لا يحكم بهذا ، لكنهم جماعة اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ليستولوا على ما ليس لهم .

وتستمر الرواية التوراتية لتخص إبراهيم من ولد سام بالبركة ، وتعبيد كنعان – ابن حام - ونسله له ، وإعطائه أرض كنعان ملكاً أبديًّا له ولنسله من بعده .

عهد يهوه لإبراهيم

يقول المؤرخون الأكاديميون اليهود : " تعرف الأرض الواقعة بين وادي الأردن والبحر الأبيض المتوسط في التقليد اليهودي بأرض إسرائيل، ويردد العهد القديم كثيراً العهد الإلهي على أن الأرض قد أعطيت لإسرائيل. وقد أتت لفظة "أرض الميعاد" من هذا الوعد الإلهي المتضمن في أول قول الرب لإبراهيم في سفر(التكوين: ١٢) " اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ وَاذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ، ٢فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً لِكَثِيرِينَ "

ولقد صرح بالوعد بشكل مختصر في سفر (التكوين : ١٥) " ١٨فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَقَدَ اللهُ مِيثَاقاً مَعْ أَبْرَامَ قَائِلاً: «سَأُعْطِي نَسْلَكَ هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ وَادِي الْعَرِيشِ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ.."

وتعتبر هذه الحدود أوسع الحدود التي نص عليه العهد القديم وتحدد قطعة أرضية ممتدة تقريبًا من غزة في الجنوب الغربي إلى نهر الفرات. ولكن في بعض مقاطع العهد القديم الأخرى، فإن الأرض التي حددها الميثاق تعتبر صغيرة جدًا.

ففي سفر (التكوين : ١٧) مثلاً فإن حدود أرض الميعاد مقتصرة على منطقة الكنعانيين الذين تجوّل إبراهيم في وسطهم "٧وَأُقِيمُ عَهْدِي الأَبَدِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، فَأَكُونُ إِلهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهاً»." [1]

وكنعان المذكور في الإصحاح السابق هو جد من جدود العرب ، والعرب أول من سكن فلسطين وهذا ثابت تاريخيًّا لا ينازع فيه إلا جاحد لكن الصهاينة يريدون أن يثبتوا أحقيتهم في أرض العرب – وخاصة فلسطين - أحقية توراتية لا أحقيقة تاريخية .

وبعد ذلك يقول الله لإبراهيم :

" ٢٩لِتَخْدُمْكَ الشُّعُوبُ، وَتَسْجُدْ لَكَ الْقَبَائِلُ، لِتَكُنْ سَيِّداً عَلَى إِخْوَتِكَ. وَبَنُو أُمِّكَ لَكَ يَنْحَنُونَ. وَلْيَكُنْ لاَعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ»." (التكوين : ٢٧)

كيف آل العهد الإلهي من إبراهيم إلى بني إسرائيل ؟

كان لإبراهيم ثمانية أولاد : إسماعيل من هاجر ، وإسحاق من سارة ، و زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا من زوجته قطورة بنت يقطن الكنعانية ، فكيف آل العهد الإلهي لبني إسرائيل من دون أبناء إبراهيم الآخرين ؟

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " ترجمة عبد الغني بن إبراهيم من منشورات: معهد هاريت و روبرت للتفاهم الدولي بين الأديان اللجنة اليهودية الأمريكية نقلاً عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية ص ١٠٤

ولكي يَقْصُر اليهود العهود على بني إسرائيل وحدهم جعلوا زوجتي إبراهيم الأخريين : هاجر ، وقطورة جاريتين حتى يحرموا أولادهما من ميراث أبيهم إبراهيم ووعوده ، وعلى الرغم من اعتراف التوراة نفسها أن إسماعيل هو بكر أبيه إبراهيم وأنه من ذريته إلا أنها تحرمه ميراثه ووعوده ؛ لأن العرب من نسل إسماعيل وبالتالي يعدون شركاء لبني إسرائيل في هذا الوعد .

وزيادة في الحيطة تجعل توراة اليهود إبراهيم يُوَرِّث إسحاق ملكه ، ووعود الله له فهو ابنه الحقيقي لأنه من سارة الحُرَّة ولأنه هو الذبيح – كما يدَّعون – أما إسماعيل فبرغم أنهم يعترفون أنه ابن إبراهيم البكر إلا أنه ابن الجارية المصرية هاجر فلا حق له في ميراث أبيه ولا وعد الله له !!

" ٥ وَوَرَّثَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحقَ كُلَّ مَالَهُ. ٦أَمَّا أَبْنَاؤُهُ مِنْ سَرَارِيهِ (أي جواريه : هاجر وقطورة) فَأَعْطَاهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَطَايَا، وَصَرَفَهُمْ فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِهِ نَحْوَ أَرْضِ الْمَشْرِقِ بَعِيداً عَنْ إِسْحقَ ابْنِهِ. " (التكوين : ٢٥)

والتوراة تؤكد – بالباطل – توريث إبراهيم إسحاقَ حتى لا يشاركه أحد من إخوته فيه فتقول توراة اليهود :

" فَارْتَحَلَ إِسْحقُ إِلَى مَدِينَةِ جَرَارَ حَيْثُ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. ٢فَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ قَائِلاً: «لاَ تَمْضِ إِلَى مِصْرَ، بَلُ امْكُثْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أُعَيِّنُهَا لَكَ. ٣أَقِمْ فِي هَذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنَّنِي **أُعْطِي لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ جَمِيعَ هَذِهِ الأَرْضِ وَفَاءً بِقَسَمِي الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. ٤وَأُكَثِّرُ ذُرِّيَّتَكَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَأُعْطِيهَا جَمِيعَ هَذِهِ الْبِلاَدِ. وَتَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ.** " (التكوين : ٢٦)

يقول علماء اللجنة اليهودية الأمريكية : " لم يتم في العهد القديم، أبدًا، تفسير السبب الذي استبعد إسماعيل من الميثاق. ويميل علماء اليهود للاعتقاد أن هدف القصة، كما ورد من أمثاله في سفر التكوين، هو تفسير العلاقات الإثنية واللغوية القريبة بين الإسرائيليين والشعوب التي يعيشون في أوساطهم.

ورد ذكر إسماعيل في العهد القديم كجد أعلى للشعوب العربية " [1]

والعبارة الأخيرة تبين لماذا استبعد إسماعيل من الميثاق ؛ لأنه جد العرب أصحاب الأرض الأصليين .

ولكن إسحاق الوريث الوحيد لملك أبيه ووعوده – بحسب الرواية التوراتية - أنجب من زوجته " رفقه " توأمين : عيسو البكر لأنه ولد أولاً ، ويعقوب الذي خرج ويده قابضة على عقب عيسو لذا سمَّوه يعقوب ، وكان عيسو رجلاً صالحًا يعمل ويطعم أهله من ثمرة جهده لذا أحبه أبوه إسحاق بعكس يعقوب الذي لا يفارق حضن أمه رفقة .

" ٢٨وَأَحَبَّ إِسْحقُ عِيسُو لأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ صَيْدِهِ، أَمَّا رِفْقَةُ فَقَدْ أَحَبَّتْ يَعْقُوبَ. " (التكوين : ٢٥)

وتستمر الدراما التوراتية ، جاعلة يعقوب يتمكن من شراء بكورية عيسو مستغلاً حاجة أخيه إلى الطعام والخبز وهاك القصة كما جاءت في توراة اليهود .

" ٢٩وَذَاتَ مَرَّةٍ عَادَ عِيسُو مِنَ الْحَقْلِ مُرْهَقاً فَوَجَدَ يَعْقُوبَ قَدْ طَبَخَ طَعَاماً، ٣٠فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: «أَطْعِمْنِي مِنْ هَذَا الطَّبِيخِ الأَحْمَرِ لأَنَّنِي جَائِعٌ جِدّاً». لِهَذَا دُعِيَ عِيسُو بِأَدُومَ. ٣١فَقَالَ يَعْقُوبُ: «بِعْنِي أَوَّلاً امْتِيَازَاتِ بَكُورِيَّتِكَ». ٣٢فَقَالَ عِيسُو: «أَنَا لاَبُدَّ مَائِتٌ، فَأَيُّ نَفْعٍ لِي مِنْ بَكُورِيَّتِي؟» ٣٣فَأَجَابَهُ يَعْقُوبُ: «احْلِفْ لِي أَوَّلا». فَحَلَفَ لَهُ، وَبَاعَ امْتِيَازَاتِ بَكُورِيَّتِهِ لِيَعْقُوبَ. ٣٤عِنْدَئِذٍ أَعْطَى يَعْقُوبُ عِيسُو خُبْزاً وَطَبِيخَ عَدَسٍ، فَأَكَلَ وَشَرِبَ ثُمَّ قَامَ وَمَضَى فِي سَبِيلِهِ. وَهَكَذَا احْتَقَرَ عِيسُو امْتِيَازَاتِ الْبَكُورِيَّةِ " (التكوين : ٢٥)

ولم يكتف يعقوب – التوراتي - بهذا بل قام بتدبير من أمِّه " رفقة " بسرقة النبوة من عيسو التي كان ينوي إسحاق منحه إياها وبالفعل تم لهما ما أرادا مستغلين ضعف

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق . ص ٢٢

بصر إسحاق وغياب عيسو وغياب الإله " يهوه " بالطبع إذ كيف يسمح إله للص بأن يكون نبيًّا ، والمستحق للنبوة عبدًا له ، ودونك القصة كما ترويها التوراة .

" وَلَمَّا شَاخَ إِسْحقُ وَضَعُفَ بَصَرُهُ اسْتَدْعَى ابْنَهُ الأَكْبَرَ عِيسُو وَقَالَ لَهُ: «يَابُنَيَّ، ٢هَا أَنَا قَدْ شِخْتُ وَلَسْتُ أَعْرِفُ مَتَى يَحِينُ يَوْمُ وَفَاتِي. ٣فَا لآنَ خُذْ عُدَّتَكَ: جُعْبَتَكَ وَقَوْسَكَ، وَامْضِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَاقْتَنِصْ لِي صَيْداً. ٤وَجَهِّزْ لِي طَعَاماً شَهِيّاً كَمَا أُحِبُّ وَائْتِنِي بِهِ لآكُلَ، لِتُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ».٥وَسَمِعَتْ رِفْقَةُ حَدِيثَ إِسْحقَ لابْنِهِ عِيسُو. فَعِنْدَمَا انْطَلَقَ عِيسُو إِلَى الْبَرِّيَّةِ لِيَصْطَادَ صَيْداً وَيَأْتِيَ بِهِ. ٦قَالَتْ رِفْقَةُ لابْنِهَا يَعْقُوبَ: «سَمِعْتُ أَبَاكَ يَقُولُ لِعِيسُو أَخِيكَ ٧اقْتَنِصْ لِي صَيْداً، وَجَهِّزْ لِي أَطْعِمَةً شَهِيَّةً لآكُلَ وَأُبَارِكَكَ أَمَامَ الرَّبِّ قَبْلَ مَوْتِي». ٨ وَالآنَ يَابُنَيَّ أَطِعْ قَوْلِي فِي مَا آمُرُكَ بِهِ، ٩وَاذْهَبْ إِلَى قَطِيعِ الْمَاشِيَةِ، وَاخْتَرْ جَدْيَيْنِ لأُجَهِّزَ لأَبِيكَ أَطْعِمَةً شَهِيَّةً كَمَا يُحِبُّ، ١٠تُقَدِّمُهَا لأَبِيكَ لِيَأْكُلَ، فَيُبَارِكَكَ قَبْلَ وَفَاتِهِ». " (التكوين : ٢٧)

وتنطلي الخدعة على إسحاق ويبارك يعقوب وهو يحسبه عيسو ، وعندما يعود عيسو ويجهز الطعام لأبيه قائلاً :

" «لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلْ مِنْ صَيْدِ ابْنِهِ فَتُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٣٢فَقَالَ إِسْحقُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَأَجَابَهُ: «أَنَا ابْنُكَ بِكْرُكَ عِيسُو». ٣٣فَارْتَعَدَ إِسْحقُ بِعُنْفٍ وَقَالَ: «مَنْ هُوَ إِذاً الَّذِي اصْطَادَ صَيْداً وَأَحْضَرَهُ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنَ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ، وَبَارَكْتُهُ؟ وَحَقّاً يَكُونُ مُبَارَكاً». ٣٤فَمَا إِنْ سَمِعَ عِيسُو كَلاَمَ أَبِيهِ حَتَّى أَطْلَقَ صَرْخَةً هَائِلَةً وَمُرَّةً جِدّاً وَقَالَ: «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَاأَبِي». ٣٥فَأَجَابَ: «لَقَدْ مَكَرَ بِي أَخُوكَ وَسَلَبَ بَرَكَتَكَ». ٣٦فَقَالَ: «أَلَمْ يُدْعَ اسْمُهُ يَعْقُوبَ؟ لَقَدْ تَعَقَّبَنِي مَرَّتَيْنِ: أَخَذَ بَكُورِيَّتِي، وَهَا هُوَ يَسْلُبُنِي الآنَ بَرَكَتِي». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا احْتَفَظْتَ لِي بِبَرَكَةٍ؟» ٣٧فَأَجَابَ إِسْحقُ: «لَقَدْ جَعَلْتُهُ سَيِّداً لَكَ، وَصَيَّرْتُ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ لَهُ خُدَّاماً، وَبِالْحِنْطَةِ وَالْخَمْرِ أَمْدَدْتُهُ. فَمَاذَا أَفْعَلُ لَكَ الآنَ يَاوَلَدِي؟». ٣٨فَقَالَ عِيسُو: «أَلَكَ بَرَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ يَاأَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً

يَاأَبِي». وَأَجْهَشَ عِيسُو بِالْبُكَاءِ بِصَوْتٍ عَالٍ. ٣٩فَأَجَابَهُ أَبُوهُ: «هَا مَسْكِنُكَ يَكُونُ فِي أَرْضٍ جَدْبَاءَ لاَ يَهْطُلُ عَلَيْهَا نَدَى السَّمَاءِ. ٤٠بِسَيْفِكَ تَعِيشُ وَلأَخِيكَ تَكُونُ عَبْداً "
(التكوين : ٢٧)

هل هذا كلام الله ؟!

هل يمكن أن تُسْرَق نبوة ؟!

هل يمكن أن يصنع ذلك رجل صالح فضلاً عن نبي مرسل ؟!

لكنها جماعة اليهود التي عادت الله ، وقتلت فريقًا من الأنبياء والمرسلين ، وعبدت الشيطان والطاغوت .

ولكي تتم الخطة التي وضعها اليهود لجعل يعقوب – جدهم الذي ينتسبون إليه بزعمهم – هو المستحق لوعد الله بميراث أرض الغربة – أرض العرب - لابد ألا يتزوج يعقوب من بنات كنعان (١) – جد العرب – حتى يكون الوعد لهم خالصًا من دون العرب .

" فَاسْتَدْعَى إِسْحقُ يَعْقُوبَ وَبَارَكَهُ وَأَوْصَاهُ قَائِلاً: «لاَ تَتَزَوَّجْ مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ. ٢قُمِ انْطَلِقْ إِلَى سَهْلِ أَرَامَ، إِلَى بَيْتِ بَتُوئِيلَ أَبِي أُمِّكَ، وَتَزَوَّجْ إِحْدَى بَنَاتِ خَالِكَ لاَبَانَ. ٣وَلْيُبَارِكْكَ اللهُ الْقَدِيرُ وَيُنَمِّكَ وَيُكَثِّرْكَ لِتَكُونَ أُمَّةً تَتَفَرَّعُ مِنْهَا شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ، ٤وَلْيُعْطِكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مَعَكَ بَرَكَةَ إِبْرَاهِيمَ لِتَرِثَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ الَّتِي تُقِيمُ فِيهَا الآنَ؛ هَذِهِ الأَرْضَ الَّتِي وَهَبَهَا اللهُ لإِبْرَاهِيمَ». " (التكوين : ٢٨)

كيف حصل يعقوب على لقب إسرائيل ؟

تذكر توراة اليهود أن يعقوب بن إسحاق نام بين بئر سبع وحران في أرض فلسطين فرأى الله فقال له :

(١) التوراة تجعل عيسو هو الذي يتزوج من بنتين من بنات كنعان وتجعلهما يسيئان معاملة رفقة لدرجة أنها كرهت حياتها بسببهما " قالت رفقة لإسحاق قد كرهت حياتي من جراء البنات الحيثيات فإن تزوج يعقوب من الحيثيات بنات هذه الأرض المماثلات لزوجتي عيسو فإن موتي خير من حياتي فاستدعى إسحاق يعقوب وباركه وأوصاه قائلا لا تتزوج من بنات كنعان " (التكوين : ٢٨) .

" أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحقَ. إِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تَرْقُدُ عَلَيْهَا الآنَ أُعْطِيهَا لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ، ١٤الَّتِي سَتَكُونُ كَتُرَابِ الأَرْضِ، وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقاً، وَشِمَالاً وَجَنُوباً، وَتَتَبَارَكُ بِكَ وَبِذُرِّيَّتِكَ جَمِيعُ شُعُوبِ الأَرْضِ. " (التكوين : ٢٨)

وبعد أن سرق يعقوب النبوة من أخيه صارع الإله " يهوه " وهزمه وحصل منه على لقب إسرائيل وإليك هذه القصة التي هي أغرب من الخيال .

" صَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ. ٢٥وَعِنْدَمَا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتَغَلَّبْ عَلَى يَعْقُوبَ، ضَرَبَهُ عَلَى حُقِّ فَخْذِه، فَانْخَلَعَ مِفْصَلُ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِه مَعَهُ. ٢٦وَقَالَ لَهُ: «أَطْلِقْنِي، فَقَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَأَجَابَهُ يَعْقُوبُ: «لاَ أُطْلِقُكَ حَتَّى تُبَارِكَنِي». ٢٧فَسَأَلَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَأَجَابَ: «يَعْقُوبُ». ٢٨فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ، بَلْ إِسْرَائِيلَ (وَمَعْنَاهُ: يُجَاهِدُ مَعَ اللهِ)، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ». ٢٩فَسَأَلَهُ يَعْقُوبُ: «أَخْبِرْنِي مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. ٣٠وَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ فَنِيئِيلَ (وَمَعْنَاهُ: وَجْهُ اللهِ) إِذْ قَالَ: «لأَنِّي شَاهَدْتُ اللهَ وَجْهاً لِوَجْهٍ وَبَقِيتُ حَيّاً». " (التكوين : ٣٢)

والهدف من هذه المصارعة العجيبة تعليل التسمية الجديدة ليعقوب " إسرائيل " التي تتكون من مقطعين " إسرا " أي تغلب وهزم ، " إيل " الله فهي تعني هازم الإله وهدفت اليهود بالتسمية الجديدة إلى الفصل بين نسل إسحاق ونسل إسماعيل المشتركين في أبوة إبراهيم جد يعقوب بن إسحاق فهذه الأسطورة إذن هدفها عنصري بحت ألا وهو تخصيص نسل يعقوب وتسميتهم بالإسرائيليين والحط من شأن نسل إسماعيل ، وجعل النبوة و الوحي محصورين في نسل إسحاق فقط .

وهذه الأسطورة واحدة من عدة أساطير تَمَّ خَلْقُها وإضافتها إلى مادة التوراة لكي تؤكد على النزعة العنصرية التي أدت إلى تبلور عدد من المفاهيم الدينية العنصرية مثل : مفهوم الاختيار الإلهي لبني إسرائيل ، وإطلاق لقب شعب الله المختار عليهم ، وقصر الوعود والمواثيق الإلهية على هذا الشعب وهناك مفهوم الخلاص الذي جعل

الخلاص الإلهي قاصرا على بني إسرائيل دون البشر أجمعين كما تم تغيير اسم الأرض من أرض فلسطين أو أرض كنعان إلى أرض إسرائيل .(١)

وبهذه الأساطير التوراتية بيِّنة الوضع ، مفضوحة الغرض ، متهرئة الحبكة صار بنو إسرائيل شعب الله المختار وصار إسرائيل – يعقوب – ابن يهوه البكر " هَذَا مَا يَقُولُهُ الرَّبُّ : إِسْرَائِيلُ هُوَ ابْنِي الْبِكْرُ " (الخروج : ٤)

تجديد العهد في سيناء

يمثل خروج بني إسرائيل من مصر عند اليهود بداية تكوين شعب إسرائيل ، لكن هذا التكوين لم يكتمل إلا عندما أنزل الله التوراة على موسى فوق جبل سيناء. وتمثل التوراة تأكيدا للعهد فالتوراة تسمى بـ "كتاب العهد" " ٧وَتَنَاوَلَ كِتَابَ الْعَهْدِ وَتَلاَهُ عَلَى مَسَامِعِ الشَّعْبِ، فَقَالُوا: «كُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُهُ وَنُطِيعُهُ». ٨ثُمَّ أَخَذَ مُوسَى الدَّمَ الَّذِي فِي الطُّسُوسِ وَرَشَّهُ عَلَى الشَّعْبِ قَائِلاً: «هُوَذَا دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي قَطَعَهُ الرَّبُّ مَعَكُمْ بِنَاءً عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الأَقْوَالِ». (الخروج : ٢٤)

فالعهد بتملك أرض كنعان مشروط حسب نص التوراة بطاعة الله والالتزام بتعاليم التوراة وعدم عصيان الله .

فمن بين الميثاق المبرم بين " يهوه " وشعبه عقوبات العصيان التي يقول الرب فيها لبني إسرائيل :

" ١٤«لكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لِي وَلَمْ تَعْمَلُوا كُلَّ هذِهِ الْوَصَايَا، ١٥وَإِنْ رَفَضْتُمْ فَرَائِضِي وَكَرِهَتْ أَنْفُسُكُمْ أَحْكَامِي، فَمَا عَمِلْتُمْ كُلَّ وَصَايَايَ، بَلْ نَكَثْتُمْ مِيثَاقِي، ١٦فَإِنِّي أَعْمَلُ هذِهِ بِكُمْ: أُسَلِّطُ عَلَيْكُمْ رُعْبًا وَسِلاًّ وَحُمَّى تُفْنِي الْعَيْنَيْنِ وَتُتْلِفُ النَّفْسَ. وَتَزْرَعُونَ بَاطِلاً زَرْعَكُمْ فَيَأْكُلُهُ أَعْدَاؤُكُمْ. ١٧وَأَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّكُمْ فَتَنْهَزِمُونَ أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْكُمْ مُبْغِضُوكُمْ، وَتَهْرُبُونَ وَلَيْسَ مَنْ يَطْرُدُكُمْ. "(اللاويين: ٢٦)

(١) د. محمد خليفة " دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة " ص ١٧

في العهد الذي أبرمه الله مع إبراهيم كان الختان والامتثال بعمله آية حية للعلاقة الإلهية مع ذرية إبراهيم ، وفي تأكيد العهد في سيناء كانت التوراة بأكملها والالتزام بأوامرها هي التي أصبحت الآية الحية للعلاقة الإلهية مع كل اللاجئين من مصر الذين أصبحوا أمة إسرائيل .

ولكن اليهود الصهاينة كان لهم رأي آخر في العهد يخالفون فيه ليس فقط أسلافهم إنما يخالفون صراحة نصوص التوراة التي يدَّعون التمسك بها فيجعلون العهد بالعودة إلى أرض الميعاد ليس مشروطًا بطاعة أو التزام بتعاليم التوراة !!

" من وجهة نظر الديانة اليهودية، فبالرغم من أن عدم الالتزام غير مقبول ، إلا أنه لم يلغ العهد، نفسه، أبدًا. يعني هذا أن العهد القائم بين الله واليهود أزلي ولا يمكن إلغاؤه والتراجع عنه أبدا .إن الذين سوف لا يستطيعون أو أنهم غير قادرين على طاعة أوامر وأحكام العهد فإنهم سيعاقبون، لكن العهد نفسه لن يزول أبدا " ٣١ لأن الرب إلهك إله رحيم لا يتركك و لا يهلكك و لا ينسى عهد آبائك الذي أقسم لهم عليه (التثنية : ٤) [1]

وبهذا يتضح جليًّا أن العهد عند اليهود الصهاينة غير مشروط بالطاعة والالتزام بتعاليم التوراة إنما هو منحة من يهوه إله إسرائيل إلى شعبه المختار !!

الرد على أسطورة الأرض الموعودة

إن نزعة " العودة اليهودية إلى فلسطين " لبناء " الوطن اليهودي " فيها لا أساس لها ولا أثر في تاريخ اليهودية ، وهي اختراع صهيوني حديث لم يتَّضح لدى الحركة الصهيونية نفسها إلا في مطلع القرن العشرين . هذه هي الحقيقة التاريخية التي لاشك فيها ولا مجال لنفيها .

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق . ص ٢٥

وإن كل ما تضفيه الدعاية الفكرية الصهيونية على حركتها ودولتها من صفات "القدم التاريخي" و " الوجود الطبيعي " هو تزوير للحقيقة وضلال في ضلال لا يخفى إلا على الجاهلين .

أكثر من ذلك أيضًا أن الحركة الصهيونية حركة الدعوة إلى تجميع يهود العالم في مكان ما وإقامة دولة لهم ، لم تكن مُصِرَّة على فلسطين في البداية . كانت تريد أي مكان في العالم يمكنها فيه بناء دولة يهودية وكانت فلسطين احتمالاً ليس أكثر . كانت فكرة الذهاب إلى أوغندا التي راودت الحركة الصهيونية ، وكانت هناك فكرة الذهاب إلى موزامبيق ، وفكرة الذهاب إلى الأرجنتين أو أية أرض أخرى في أمريكا اللاتينية، كما طرحت فكرة الذهاب إلى بلاد مابين النهرين ، وفكرة الذهاب إلى العريش المصرية ، وفكرة الذهاب إلى قبرص .

وكان هرتزل مستعدًّا لتنفيذ أيٍّ من هذه الاحتمالات لو تيسَّرت له سبل تنفيذها قبل سواها . لم يكن هدفه الأساسي إقامة دولة يهودية في فلسطين بل كان هدفه الأساسي إقامة دولة يهودية في أي مكان في العالم .

واليهود مثل أبناء سائر الديانات يتألفون من جميع الأعراق التي وصلت إليهم دعوتهم عبر الأجيال من الصين إلى بولونيا ، وأي أساس يرجى لمفهوم " أرض الميعاد " وهو روحي المعنى ، رمزي المدلول مثله مثل كل ما هو وارد في التوراة ، وقد فسرته الحركة الصهيونية تفسيرًا سياسيًّا مشوَّها لا يَمُت للأصل بصلة .

لقد كان هذا التشويه موضع استنكار اللاهوتيين اليهود أيضًا ممن رفضوا في حينه التحريف السياسي للتوراة الذي حملته الصهيونية ، كما رفضوا تحويل الديانة اليهودية إلى مشروع دولة ، وتاريخ الحركة الصهيونية في الثلث الأول من القرن العشرين هو أيضًا تاريخ صراعها مع هذا التيار اليهودي الذي يرى في اليهودية "دين روحي الهدف إنساني الدعوة" لا يمكن تحويله إلى دولة مغلقة ، ولم تلق الصهيونية قبولاً يهوديًّا إلا بعد تحالف الصهيونية مع النازية لتهجير يهود أوروبا إلى فلسطين وإبادة الراغبين في الاندماج في المجتمعات الأوربية أو عديمي النفع للدولة

اليهودية من الفقراء والمعاقين والعجائز ، وقبل هذا التحالف الصهيوني / النازي كان غالبية يهود أوروبا الغربية ، والعدد الأكبر من يهود أمريكا يرون في الصهيونية خطرًا على اندماجهم في مجتمعاتهم ، وأداة تحريض دائمة عليهم . (1)

وقبل أن نحلل النصوص التوراتية حول الوعد الإلهي لبني إسرائيل نذكر موجزًا للآراء بعض كبار علماء اللاهوت والباحثين في العهد القديم حول أسطورة الأرض الموعودة .

ونبدأ برأي عميدة كلية اللاهوت البروتستانتية في باريس ، والذي يشاركها كثير من علماء اللاهوت فيه " إن معظم المفسِّرين قد أخذوا الوعد المعطى للآباء بمعناه الكلاسيكي على أنه إضفاء للشرعية بعد الأحداث على الغزو الإسرائيلي لفلسطين ، أو على أنه امتداد لسيادة الإسرائيلية في عهد داود . بعبارة أخرى فقد أُدْخِل الوعد ضمن أحاديث الآباء بغية اتخاذ هذه الملحمة السلفية كتمهيد وكإعلان عن العصر الذهبي الداودي والسليمان .

أما الرأي الثاني فللبروفسور " غليوم " أستاذ العهد القديم في جامعة لندن وأستاذ اللغات الشرقية في جامعة برمنجهام سابقًا وواضع العديد من المؤلفات عن العهد القديم ، يقول غليوم :

" إن النصوص الواردة في العهد القديم تعطي تفسيرًا غامضًا لرقعة هذه الأرض إنها تبتدئ من شجام (نابلس) وتمتد لتشمل كل المنطقة من النيل إلى الفرات ، وينص أحد الوعود على أن نسل إبراهيم سينتشر في الجهات الأربع ، وهنا أيضًا من المهم أن ننتبه أن الوعد بالسيطرة على المنطقة من النيل إلى الفرات قد أُعْطِيَ قبل مولد إسحاق وإسماعيل لذا فإن الوعد لا يعني أن هذه المنطقة تكون إسرائيلية (إي لنسل إسحاق) خالصة " (2)

(1) فيصل أبو خضرا " تاريخ المسألة الفلسطينية " ص ٣١ ، ٣٢
(2) نقلا عن حسين الطنطاوي " الصهيونية والعنف " دار الشعب ص ٦٦

ونختتم هذه الآراء بذكر رأي المفكر الفرنسي الأشهر رجاء جارودي الذي يمكن أن نوجزه في النقاط الآتية :

١- الوعد بالأرض بمعنى الوعد بالاستقرار قد وجِّه أولاً إلى قبائل البدو الرُّحَّل التي كانت تطمح إلى الاستقرار في مكان ما بالمناطق الصالحة للسكنى ، وبمقتضى هذا فإن الوعد كان جزءًا من الإرث الديني والروائي لعدة قبائل بدوية متباينة .

٢- أما وعد الرُّحَّل فقد كان الغرض منه ليس الغزو السياسي أو العسكري لمنطقة أو لبلد بأكمله بل الاستقرار في منطقة محددة .

٣- في الأصل فإن الوعد المعطى للآباء والذي تحدَّث عنه سفر التكوين لم يقطعه " يهوه " (الرب الذي دخل فلسطين مع مجموعة الخروج) ولكن الرب الكنعاني "إيل" في إحدى أقانيمه المحلية والرب المحلي - مالك الأرض – هو وحده الذي يستطيع أن يمنح للرُّحَل حق الاستقرار في أراضيه .

٤- عندما تجمَّعت القبائل الرُّحل التي استقرَّت مع قبائل أخرى لتشكِّل " شعب إسرائيل " فإن الوعود القديمة كانت بمثابة أهداف قد تحققت ، ومن ثم بدأ الوعد يتخذ أبعادًا سياسية وعسكرية وقومية وعلى ذلك فإن الوعد بعد إعادة تفسيره على هذا النحو فُهم على أنه التجسيد المسبق للغزو النهائي لفلسطين وكإعلان وإضفاء للشرعية على مملكة داود .

٥- يرجع وعد " الرُّحَّل " الذي يهدف إلى توطين عشيرة موحدة إلى أصل يسبق الأحداث دون شك فإن الأمر يختلف بالنسبة للوعد الموسع ذي الأبعاد القومية ونظرًا لأن القبائل الإسرائيلية لم تتوحَّد إلا بعد استيطانها في فلسطين فإن إعادة تفسير وعد الرُّحل ليصبح وعدًا بالسيادة السياسية قد تمَّت بعد الأحداث وعلى ذلك فإن سفر التكوين (١٥ : ١٦- ٢١) الذي يتوخَّى سيادة الشعب المختار على جميع المناطق الواقعة بين نهر مصر والنهر الكبير نهر الفرات ، وعلى جميع الشعوب التي تقطن هناك هو بجلاء نبوءة ما قبل الأحداث مستوحاة من غزوات داود .

وقد أتاحت البحوث التفسيرية التأكد على أن توسيع وعد الرُّحل وجعله وعدًا قوميًّا قد حدث قبل تحرير أقاويل الأوائل خطيًّا .

ولقد عاش القصَّاص " يهويا " الذي يُعْتَبَر أول قصَّاص كبير (أو بالأحرى : محرر الأحاديث) للعهد القديم في عصر سليمان ومن ثمَّ فقد كان معاصرًا وشاهدًا على العقود التي تحقق فيها وعد الآباء الذي أعيد تفسيره في ضوء داود بما يفوق كل الآمال .

ونص سفر التكوين : ١٢ " وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ وَاذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ، ٢فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً (لِكَثِيرِينَ). ٣وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَأَلْعَنُ لاعِنِيكَ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ». ٤فَارْتَحَلَ أَبْرَامُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ " هو نص من تلك النصوص الأساسية لفهم أعمال " يهويا " ووفقاً لهذا النص فإن بركة إسرائيل قد رافقتها بركة جميع "قبائل الأرض" وقبائل الأرض هم أولاً كل الشعوب التي تتقاسم مع إسرائيل فلسطين والضفة الغربية .

وهكذا فإننا لسنا في حِلٍّ من التأكيد على أنه في فترة ما من فترات التاريخ ظهر الرب أمام شخصية تاريخية تسمى إبراهيم وأنه قد منحه الصكوك الشرعية لامتلاك أرض كنعان ومن الناحية القانونية فإننا لا نملك صك للهبة موقعة من الله بل لدينا من الأسباب القوية ما يجعلنا نفكّر في أن المنظر الوارد في سفر التكوين (١٢ : ١- ٨ / ٨ ، ١٣- ١٤/ ١٨) على سبيل المثال لا يعكس حادثة تاريخية .

فهل من الممكن والحال هذه تفعيل وعد الآباء ؟ فإذا كان معنى تفعيل الوعد هو استخدامه كصك من صكوك الملكية أو لوضعه في خدمة المطالبات السياسية فهو قطعا ليس كذلك .

فليس هناك أي سياسة لها حق ادعاء كفالة الوعد وضمانه ، ولا نتفق بأي شكل من الأشكال مع أي من المسيحيين الذين يعتبرون وعود العهد القديم بمثابة إضفاء الشرعية على المطالبة بالأراضي الحالية لدولة إسرائيل . (١)

هل الوعود الإلهية بتملك الأرض قاصرة على بني إسرائيل ؟

ويجيب جارودي عن هذا السؤال قائلاً : " إن قِراءة النصوص المقدَّسة فِي الشرق الأوسط تُرينا أن جمِيع الشعوب قد لمست فِيها وعودًا متشابهة، مِن ربِّها، تَعِدها بالأرض، من العِراق إلى مِصر، مرورًا بالحثيين.

ففي مصر أقام تحتمس الثالث معبد الكرنك (بين ١٤٨٠ و١٤٧٥ ق.م) حتى يحتفل بانتصاراته التِي حققها على طريق غزة، مجدو، قادش، إلى الكَرَك ، وقد قال له الإله: "لقد حددت لك بأمري الأرض، بالطول والعرض، جئت لأمكنك من أن تستحق أرض الغرب".

وعلى الطرف الآخر من الهلال الخصِيب، بالعِراق فِي اللوحة السادسة من "قِصة الخلق البابلية" نجد الإله مردوخ، "يعيِّن لِكلٍّ حظَّه" "العِبارة :٦"، ولكي يختم العهد يأمر ببناء بابل ومعبدها (٢)

وبين الاثنين نجد الحثيين يغنون لأرينَا، إلهة الشمس:

"إنك تسهرين على أمان السماوات والأرض وأنت تحرسين حدود البلاد" (٣)

فلو لم يتلَقَّ العبرانيون وعدًا كهذا لاعتُبروا فِي الحقيقة شذوذًا واستثناءً .

وعليهِ، فإن ما يُعَدُّ اِستِثناء وشذوذًا هو اِستِخدام الوعد، بعد ثلاثة آلاف عام، على نحو ما حدث: أن يتخيلوا العِراق أساسًا مِن أسس مزاعمهم حول الأرض، طبقًا لوعد

---

(١) رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " دار الغد العربي ص ٣٧-٤٠

(2) رينيه لابت " أديان الشرق الأدنى " ط آيارد ١٩٧٠ صِ ٦٠ . نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق .

(3) السَّابِق صِ ٥٥٧ .

مردوخ، أو الأرض السورية طبقًا لوعد أرْيَنا "لأجدادهم" الحثيين، أو مصر، طبقًا لوعد آمون لتحتمس !! لقد كان العالم كله على صواب أن يأخذ هذه الوعود جميعًا مأخذ السخرية والاستهزاء .

إن التاريخ المقارن للأديان يُرينا، بصفة أكثر عمومًا، كيف أن قبائِل جمِيع الشعوب، من إفريقيا إلى بولينيزيا قد أنشأت قصصًا مُعَبِّرَة عن أنسابها، تَصِلُها بأجداد أسطوريين، هم أبطال رمزيون، منحوا أسمائهم للقبيلة، وضمِنوا لها أرضها، هذا النوع من الأسطوريَّة، نما ـ أيضًا ـ فِي الغرب: فكانت الإلياذة والأوديسا لدى اليونانيين "سفر التكوين"، وعندما أصبح أوغسطس إمبراطورًا لروما، كانت أشعار فيرجيل هي التي تروي ملحمة البطل، مؤسس "المدِينة الخالدة"، إينيه أحد الناجين من حصار طروادة، وهو يتلقى النصوص القدِيمة للإلياذة والأوديسا، والتقاليد الشفهية التي يحكي كثِير منها أحداثاً تاريخية واقعيَّة، على الطريقة اليونانية، ولقد رأينا كيف أن القوميات المختلفة في القرن التاسع عشر ـ عمدت إلى إحياء هذه الأساطير.

إن أية قومِية تحتاج إلى أن تُضفي صفة القداسة على دعاواها، فبعد تفسُّخ المسِيحِيَّة عمدت كل دولة ـ قومِية إلى اِدِّعاء أنها جمعت التراث المقدس، وأنها تلقت من الله تنصِيبًا، اِبتِداءً من روسيا المقدسة، إلى الملوك الكاثوليك بأسبانيا، وفرنسا، الابنة الكبرى للكنيسة، التي تم بها عمل الرب، إلى ألمانيا، "فوق الجمِيع"؛ لأن الرب معها، وأعلنت إيفا بيرون "أن رسالة الأرجنتين هي أن تأتيَ بالرب إلى العالِم"، وفي عام ١٩٧٢ أشهر رئيس وزراء جنوب إفريقيا، فورستر بعنصريته المتوحشة، سياسة التمييز العنصري، وتكهَّن بدوره قائِلاً : "يجب ألا ننسى أننا شعب الرب، مختارون لِرسالة" .

جاء فِي صحِيفة فيفان يونيفر عدد ٢٩٠ يناير ـ فبراير ١٩٧٤، عِبارة "أنتم جُنْد المسيح" وذلِك فِي كلمة الكاردنيال سبيلمان إلى قوات الحملة الأمريكية فِي فيتنام، دون أن يستنكِر البابا قولته هذه .

ولسوف يكون غريبًا ألا تتقاسم القومية الصهيونية مع سائر القوميات هذِهِ النشوة، ولاسيما أن الصهيونية السياسِية ترفض من الناحِية المنهجية فِكرة أن اليهودية دين فقط، وترى أن اليهودية أُمَّة ـ قَوْميَّة.

فهذه هي المسلَّمة الأساسِية للصهيونية: أن اليهودية ليست دينًا أساسًا، ولكنها قومِية أولاً .

ولقد كتب ماكس نوردو، وهو من أقرب زملاء هرتزل إليه ـ عام ١٩٠٢ يقول: "إن النقطة الوحيدة التِي تنفي إلى الأبد احتمال أن يتفق اليهود الصهيونيون واليهود غير الصهيونيين هِي مسألة القومية اليهودية، فالذي يعتقد ويؤيد أن اليهود ليسوا قومية لا يمكِن ـ في الواقع أن يكون صهيونيًّا " (١)

إن فكرة الأماكن المقدسة المرتبطة بفكرة الجنس هي الخيط الذي قاد جميع حوادث اغتصاب الأراضي التِي ارتكبتها القوميات في القرن التاسِع عشر.

لقد ربط تيودور هرتزل، الذي تَشَرَّبَ الثقافة الألمانية بعمق، بين الأرض والجنس فهو في كتابه : "الدولة اليهودية" يُلِحُّ ابتداء من المدخل، على فكرة "الجنس اليهودي"، فيقول : "إن اليهود، وهم الأعلون ماديًّا وأدبِيًّا، قد فقدوا فقدانًا كامِلاً شعورهم بالترابط الجِنسي... إن اليهود الأقوياء يعودون فخورين إلى جنسهم عندما يتفجر الاضطهاد . " (٢)

ثم يضيف قوله : فليعطونا السيادة على جزء من الأرض ذي علاقة بحاجاتنا المشروعة ... فلسطين هي وطننا التاريخي الذِي لا يُنْسَى، وهذا الاسم وحده سوف يكون صرخة التجمع القوية لشعبنا " (٣)

---

(1) " دِرَاسَة أنثروبولوجية للنصوص الصهيونية " نشرة رابين آرثر هيرتزبرج بعنوان "الفِكرة الصهيونية " نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " ص ٢٤٣ مرجع سابق

(2)تيودور هرتزل " الدولة اليهودية " نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " ص ٢٢. مرجع سابق .

(3) تيودور هرتزل " الدولة اليهودية " مرجع سابق ص ــ ٤٥.

والحقيقة أن حديث هرتزل عن أسطورة الجنس اليهودي وأرض فلسطين لم يكن له أساس من الموضوعية ولا حتى من الإيمان اليهودي ، إنما الذي اضطر هرتزل إلى التركيز على هذه الأسطورة هو ما لها من قدرة كبيرة على حشد المؤيدين لمشروعه الصهيوني الاستعماري

فهرتزل الذي روج لهذه الأسطورة قد كتب فيما يتعلق بالجنس يقول: "إننا- والحق يُقال - لا نرى أنفسنا منتمين إلى نفس الجنس إلا فِي إيمان أجدادنا" (١)

فهرتزل عندما صاغ الشعارات : " نحن شعب " ، "وفلسطين وطننا التاريخي الذي لا يُنْسَى" فإنه لم يفعل سوى أن تناول ما أطلق عليه هو نفسه : " الأسطورة العظيمة " (٢)

وقد كان هرتزل معجباً بالنظرية العرْقية، ولكنه كان صديقاً لإسرائيل زانجويل الروائي الإنجليزي والزعيم الصهيوني اليهودي ذي الأنف الطويل والشبيه بأنوف الزنوج والشعر الكث الحالك السواد، وكانت نظرة واحدة إليه تكفي- على حدِّ قول هرتزل نفسه - لدحض أي تصور عرْقي لليهود . (3)

إنه يعرف جيدًا أن أسطورة الجنس اليهودي محض خيال، ليس لها أساس علمي، وهو يصِف السمات الفيزيقية فِي مناقشة مع إسرائيل زنجويل، وكأنها معارضة لسماته معارضة تامة، فيقول : " إنه يستمسِك بفكرة الجنس، وهو شيء لا أستطِيع أن أقبله، وليس أمامي سوى أن أنظر إليه وأنظر إلى نفسي، فكل ما أقوله هو : نحن وحدة تاريخية وقومية ذات تنوع أنثروبولوجي، وهذا يكفي لقيام دولة يهودية؛ إذ ليس لأية قومِية جِنس منسجم " (٤)

---

(1) تيودور هرتزل " الدولة اليهودية " مرجع سابق ص ــ ١١٢.
(2) نفسه ص ٤٥
(3) د . عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٢ ج١ - إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية . بيت العرب للتوثيق العصري والنظم .
(4) يَوْمِيَّات تيودور هرتزل . نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق صِ ٧٨.

وبعد أن عرفنا رأي علماء اللاهوت والباحثين في الوعد الإلهي نبدأ الآن بتحليل النصوص التوراتية التي يستند إليها اليهود الصهاينة في إثبات أحقيتهم في استيطان الأرض الموعودة أرض كنعان التي تمتد من النيل للفرات .

إسماعيل ابن إبراهيم البكر

تنص توراة اليهود على أن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم " ١٥ثُمَّ وَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْناً، فَدَعَا أَبْرَامُ ابْنَهُ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لَهُ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ. ١٦وَكَانَ أَبْرَامُ فِي السَّادِسَةِ وَالثَّمَانِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا وَلَدَتْ لَهُ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ." (التكوين : ١٦)

ثم تنص توراة اليهود على أنه بعد مولد إسماعيل بثلاث عشرة سنة بشَّر الله إبراهيم بميلاد اسحق من سارة ، وتعجب إبراهيم أن يولد له ابن آخر وقد بلغ المائة عامًا " «أَيُوْلَدُ ابْنٌ لِمَنْ بَلَغَ المِئَةَ مِنْ عُمْرِهِ؟ وَهَلْ تُنْجِبُ سَارَةُ وَهِيَ فِي التِّسْعِينَ مِنْ عُمْرِهَا؟ » " (التكوين : ١٧)

لكن الله قضت مشيئته " ٢فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ فِي شَيْخُوخَتِهِ ابْناً، فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَيَّنَهُ اللهُ لَهُ. ٣فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ ابْنَهُ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحقَ». "

(التكوين : ٢١)

ويَعِد الرب سارة أن تكون أمًّا لشعوب ومنها ينحدر ملوك أمم " ١٥وَقَال الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «أَمَّا سَارَايُ زَوْجَتُكَ فَلاَ تَدْعُوهَا سَارَايَ بَعْدَ الآنَ، بَلْ يَكُونُ اسْمُهَا سَارَةَ (وَمَعْنَاهُ أَمِيرةٌ). ١٦وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ ابْناً مِنْهَا. سَأُبَارِكُهَا وَأَجْعَلُهَا أُمّاً لِشُعُوبٍ، وَمِنْهَا يَتَحَدَّرُ مُلُوكُ أُمَمٍ» " (التكوين : ١٧)

ثم يؤكد الرب لإبراهيم أنه سيكون له نسل من إسحق : " لأنه بإسحق يدعى لك نسل " (التكوين : ٢١)

والعجيب أن تنص التوراة بعد ذلك على أن إسحق هو الابن الوحيد لإبراهيم لتنسب له شرف الفداء من الذبح وهي التي ذكرت أن إسماعيل هو الابن البكر

لإبراهيم ، كما ذكرت أن إبراهيم سيكون له نسل من اسحق فكيف يعده الله بالنسل من إسحق ثم يطلب منه أن يقدم ابنه للمحرقة وهو بَعْدُ صغير لم يتزوج وليس له ولد !!

" وَبَعْدَ هَذَا امْتَحَنَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ، فَنَادَاهُ: «يَاإِبْرَاهِيمُ» فَأَجَابَهُ: «لَبَّيْكَ». ٢فَقَالَ لَهُ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، إِسْحقَ الَّذِي تُحِبُّهُ، وَانْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا وَقَدِّمْهُ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَهْدِيكَ إِلَيْهِ». " (التكوين : ٢٢) .

ومن الواضح الجلي – كما أشار إلى ذلك الباحثون قديمًا وحديثاً – أن اسم إسحق قد أُقحِم على النص السابق فيما بعد إذ كيف يكون إسحق هو الابن الوحيد وقد وُلِدَ إسماعيل قبله بأربع عشرة سنة بنص توراة اليهود نفسها !!

وتؤكد التوراة على أن الذاهب إلى المحرقة هو ابن إبراهيم الوحيد " فناداه ملاك الرب من السماء قائلاً :

" إبراهيم ، إبراهيم فأجاب " نعم " فقال : " «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الصَّبِيِّ وَلاَ تُوْقِعْ بِهِ ضُرّاً لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّكَ تَخَافُ اللهَ وَلَمْ تَمْنَعِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي»... ١٥وَنَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ مِنَ السَّمَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً: ١٦وَقَالَ: «هَا أَنَا أُقْسِمُ بِذَاتِي يَقُولُ الرَّبُّ: لأَنَّكَ صَنَعْتَ هَذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تَمْنَعِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي، ١٧لأُبَارِكَنَّكَ وَلأُكَثِّرَنَّ ذُرِّيَّتَكَ فَتَكُونُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَرَمْلِ شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَتَرِثُ ذُرِّيَّتُكَ مُدُنَ أَعْدَائِهَا. ١٨وَبِذُرِّيَّتِكَ تَتَبَارَكُ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، لأَنَّكَ أَطَعْتَنِي» " (التكوين : ٢٢)

وعليه فإنه من المؤكد أن أمر التضحية والفداء قد جاء في وقت لم يكن فيه لإبراهيم سوى ولد وحيد هو إسماعيل . وبالتالي لا تنطبق على إسحق صفة «الوحيد». وقد نصت توراة اليهود على أن إسماعيل كان الابن الوحيد لإبراهيم لمدة أربعة عشر عامًا .

" ٢١غَيْرَ أَنَّ عَهْدِي أُبْرِمُهُ مَعَ إِسْحقَ الَّذِي تُنْجِبُهُ لَكَ سَارَةُ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ». ٢٢وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ مُحَادَثَتِهِ فَارَقَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ.٢٣وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ

بِعَيْنِهِ أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ وَجَمِيعَ الْمَوْلُودِينَ فِي بَيْتِهِ وَكُلَّ مَنِ اشْتُرِيَ بِمَالٍ، كُلَّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَخَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ. ٢٤وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ فِي التَّاسِعَةِ وَالتِّسْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ، ٢٥أَمَّا إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ فَقَدْ كَانَ ابْنَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ. ٢٦وَهَكَذَا خُتِنَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ فِي الْيَوْمِ نَفْسِهِ." (التكوين : ١٧)

واليهود إذ ينفون عن إسماعيل صفة الذبيح المُفتدَى وينسبونها لإسحق فإنهم يرمون من وراء ذلك اتصاف اسحق بكل مكرمة فهو أولاً ابن سارة الحرَّة وليس ابن هاجر الجارية كإسماعيل ، وهو صاحب العهد الأبدي هو وذريته قبل أن يولد ، وهو الذبيح المفدى لذا فهو الحقيق بأن يدعى الابن الوحيد لإبراهيم من دون إسماعيل تجهيزًا له ليرث عهد الله لإبراهيم بامتلاك أرض كنعان !!

يقول البروفسور (غليوم) :

" يُعْتَقَد حاليًا أن هذه الوعود قد أعطت لليهود وحدهم ، ولكن التوراة لا تنص على ذلك إن عبارة " نسلكم " تشمل بدون شك العرب مسلمين ومسيحيين الذين يملكون حق القول أنهم من نسل إبراهيم عن طريق ابنه إسماعيل إنه من المعتقد أن إسماعيل هو جد عدد كبير من القبائل العربية ، ونص سفر التكوين على أن إبراهيم هو جد العديد من قبائل شمال شبه الجزيرة العربية من نسل إحدى سراياه ، وعلاوة على ذلك فإنه لما أعطي عهد الختان لإبراهيم (سفر التكوين ٢ ، ١٥) ووعد هو وأهله بأرض كنعان كملك أبدي قد عني إسماعيل آنذاك خصوصًا وقد كان اسحق لم يولد بعد " (١)

ويركز العهد القديم على عدم نقاء دم إسماعيل ، فهو أولاً من أم مصرية ، ثم إنه تزوج هو نفسه من مصرية ، واندمج نسله مع المَدْيَنيين والمؤابيين ، الأمر الذي

(١) نقلا عن حسين الطنطاوي " الصهيونية والعنف " مرجع سابق ص ٦٦

جعلهم خصوماً للعبرانيين على الدوام . وقد تم استبعاده من الميثاق الذي عُقد بين إبراهيم والخالق والذي ورث بموجبه نسل إبراهيم أرض كنعان .

وتصف توراة اليهود إسماعيل بأبشع الصفات .

" أَضَافَ مَلاَكُ الرَّبِّ: «هُوَذَا أَنْتِ حَامِلٌ، وَسَتَلِدِينَ ابْناً تَدْعِينَهُ إِسْمَاعِيلَ (وَمَعْنَاهُ: اللهُ يَسْمَعُ) لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ صَوْتَ شَقَائِك. وَيَكُونُ إِنْسَاناً وَحْشِيّاً يُعَادِي الْجَمِيعَ وَالْجَمِيعُ يُعَادُونَهُ، وَيَعِيشُ مُسْتَوْحِشاً مُتَحَدِّياً كُلَّ إِخْوَتِهِ " (التكوين : ١٦) أي أن إسماعيل سيعادي كل الناس ويعاديه الناس جميعًا ! .

وتُصوِّر " الأجاداه " إسماعيل شخصية شريرة فشل إبراهيم في تربيته، فهو يفسد النساء ويعبد الأوثان ويحاول قتل إسحق، ولكنه ماهر في استخدام السهم والقوس. تزوج من امرأة مؤابية، وحينما زارهما إبراهيم كان إسماعيل غائباً. ولم تكرم الزوجة المؤابية وفادته، فترك إبراهيم له رسالة بأن عليه - أي إسماعيل - أن يُغيِّر وتد خيمته. ففهم إسماعيل مضمون الرسالة، وطلق زوجته وتزوج كنعانية تُسمَّى فاطمة (!). وقد ندم إسماعيل في نهاية حياته على كل المعاصي والآثام، وتنحَّى جانباً في جنازة إبراهيم احتراماً لأخيه إسحق. ويُعتبَر إسماعيل أبًا للعرب وقد كان يُشار إلى العرب في الكتب الدينية اليهودية في العصور الوسطى باسم الإسماعيليين. والآن يُطلق سكان الكيبوتسات على العاملات العربيات اللائي يعملن فيها اسم كومبينه فاطمة " (١)

هل إسحاق هو الوريث الوحيد لإبراهيم ؟

نصت التوراة على أن هاجر كانت جارية سارة ولمَّا كانت سارة عاقراً فقد طلبت من إبراهيم أن يتزوج بهاجر فينجب منها حتى لا ينقطع نسله .

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ / ج ١ / الباب الثـــامن " إسماعيل " مرجع سابق

" وَأَمَّا سَارَايُ زَوْجَةُ أَبْرَامَ فَقَدْ كَانَتْ عَاقِراً، وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ تُدْعَى هَاجَرَ. ٢فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ حَرَمَنِي مِنَ الْوِلاَدَةِ، فَادْخُلْ عَلَيْهَا لَعَلَّنِي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِكَلاَمِ زَوْجَتِهِ. ٣وَهَكَذَا بَعْدَ إِقَامَةِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، أَخَذَتْ سَارَايُ جَارِيَتَهَا الْمِصْرِيَّةَ هَاجَرَ وَأَعْطَتْهَا لِرَجُلِهَا أَبْرَامَ لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ " (التكوين : ١٦)

وتؤكد التوراة في مواضع كثيرة على أن هاجر جارية ، وابنها إسماعيل ابن الجارية ، وتكرر هذا بشكل ملفت " فأنا قد زوجتك من جاريتي " " ها هي جاريتك تحت تصرفك " " يا هاجر جارية سارای " " إنني هاربة من وجه سيدتي سارة " " ٩وَرَأَتْ سَارَةُ أَنَّ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَسْخَرُ مِنِ ابْنِهَا إِسْحقَ، ١٠فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، فَإِنَّ ابْنَ الْجَارِيَةِ لَنْ يَرِثَ مَعَ ابْنِي إِسْحقَ». ١١فَقَبُحَ هَذَا الْقَوْلُ فِي نَفْسِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَجْلِ ابْنِهِ. ١٢فَقَالَ اللهُ لَهُ: «لاَ يَسُوءُ فِي نَفْسِكَ أَمْرُ الصَّبِيِّ أَوْ أَمْرُ جَارِيَتِكَ، وَاسْمَعْ لِكَلاَمِ سَارَةَ فِي كُلِّ مَا تُشِيرُ بِهِ عَلَيْكَ لأَنَّهُ بِإِسْحقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. ١٣وَسَأُقِيمُ مِنِ ابْنِ الْجَارِيَةِ أُمَّةً أَيْضاً لأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ»." (التكوين : ٢١)

أرأيتم كم مرة وُصِفت فيها هاجر بأنها جارية ، وإسماعيل بأنه ابن الجارية !!

لما هذا التكرار الممل ؟

أنا أقول لكم هذا التكرار – بَيِّن الوضع – أضيف إلى التوراة لاحقا ليئول ميراث إبراهيم لإسحاق دون إسماعيل لأن ابن الجارية لا ينبغي له – في منطق اليهود – أن يرث من أبيه هذا بالإضافة لسوء طبعه وفساد خلقه !

لكن ليس هناك جريمة كاملة كما يُقال فإن توراة اليهود نسيت أن تحذف جملة "١٣وَسَأُقِيمُ مِنِ ابْنِ الْجَارِيَةِ أُمَّةً أَيْضاً لأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ." فتوراة اليهود تنص على أن إسماعيل من ذرية إبراهيم ، وكانت قد نصت على أن الله قد وهب لإبراهيم وذريته جميع أرض كنعان " ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهاً». " (التكوين : ١٧)

وتؤكد التوراة هذا العهد :

" ٩وَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «أَمَّا أَنْتَ فَاحْفَظْ عَهْدِي، أَنْتَ وَذُرِّيَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ مَدَى أَجْيَالِهِمْ. ١٠هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ "(التكوين : ١٧)

يقول المثل : " إن كنت كذوباً فكن ذكوراً " ، لأن الكاذب ينسى كذبه ويصرح بخلافه وهذا ما حدث مع كَتَبَة التوراة فقد نسوا – أو أُنْسوا - أن يحذفوا ما يناقض ما يدَّعونه فالتوراة نصت على أن إسماعيل من ذرية إبراهيم المستحقة لميراثه ، كما نسى كَتَبَة التوراة أن إسحق لم يكن يوما ابنًا وحيدًا لإبراهيم لذا فالذبيح هو إسماعيل الذي ظل وحيد إبراهيم لمدة أربع عشرة سنة .

ويعترف علماء اليهود المحققون بأن استبعاد إسماعيل من العهد ليس له ما يبرره وأن التوراة نفسها لم تقدم أي تفسير لهذا " لم يتم في العهد القديم، أبدا، تفسير السبب الذي استبعد إسماعيل من الميثاق. (1)

إسماعيل هو الذبيح

القرآن الكريم - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – يقص علينا قصة ذرية إبراهيم بالحق في وضوح مبين فقد دعا إبراهيم ربه أن يرزقه ابنًا صالحًا فبشره الله تعالى بغلام حليم { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ *سَلامٌ عَلَى

(1) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق . ص ٢٣

إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ *وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ} (الصافات : ١٠٠- ١١٣)

والغلام الحليم هو إسماعيل فهو بكر أبيه وهو أول أبنائه الصالحين ، وهو الذي أسكنه إبراهيم عند بيت الله المحرم .

{ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } (إبراهيم : ٣٧)

وهو الذي أمره الله تعالى مع أبيه إبراهيم أن يطهرا بيت الله الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود .

{ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } (البقرة : ١٢٥)

وهو الذي رفع القواعد من البيت الحرام مع أبيه إبراهيم .

{ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (البقرة : ١٢٧)

وهو الذي دعا مع أبيه أن يجعلهما الله مسلمين له ويريهما المناسك ويتوب عليهما .

{ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (البقرة : ١٢٨)

وهو الذي أدى مع أبيه إبراهيم المناسك من طواف وسَعْي حتى إذا أتم السعي أخبره أبوه أنه يرى في المنام أنه يذبحه .

{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ

لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } (الصافات : ١٠٢-١٠٧)

ولا ذكر هنا لإسحاق على الإطلاق في سكن البيت الحرام ولا تطهيره ولا بنائه ولا أداء المناسك والسعي ، لا ذكر إلا لإبراهيم وإسماعيل ، وبعد أن ابتلى الله تعالى إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل ، وتم الفداء بالذبح العظيم بشَّر الله تعالى إبراهيم بإسحق نبيًا .

{ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ } (الصافات : ١١٢- ١١٣)

وإن المرء ليأخُذُه العجبُ ، كيف التبس الأمر على بعض المفسرين فزعموا أن الذبيح هو إسحاق مع أن النص القرآني واضح غاية الوضوح في أن البشارة بإسحاق كانت بعد عملية الذبح والفداء ؟! وكيف جيء بإسحاق من الشام ليُذْبَح في مكة التي هي مسكن إسماعيل وأمه !!

فيزعم أصحاب رأي إسحاق هو الذبيح أن " إبراهيم ذبح إسحاق في المنام ، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة ، حتى أتى به المنحر من منى ؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه ، وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة طويت له الأودية والجبال " .

ولا دليل على هذا الكلام العجيب . وكثير من علماء السلف والخلف من فنَّده .

فعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ! ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة. وروي عن النبي ﷺ :"أن الذبيح إسماعيل" (١)

(١) تفسير القرطبي ج١٥ ص ١٠٠

وذكر القرطبي حجج من قال إن الذبيح هو إسماعيل فقال : " احتج من قال إنه إسماعيل: بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: { وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين } (الأنبياء: ٨٥)

وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله: { إنه كان صادق الوعد} (مريم : ٥٤) ؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به ؛ ولأن الله تعالى قال :{ وبشرناه بإسحاق نبيا } فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيا، وأيضا فإن الله تعالى قال : { فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب }
(هود : ٧١)

فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب. وأيضًا ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة ، فدل على أن الذبيح إسماعيل ، ولو كان إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس " (١)

وأكد العلماء المحققون وعلى رأسهم الحافظ ابن كثير - في كتابه الماتع البداية والنهاية - أن الذبيح هو إسماعيل وأن من قال بغير ذلك من المسلمين فلا برهان له على ذلك إنما تلقاه من اليهود الذين حرفوا الكلم عن مواضعه .

" وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان أسنهما وأجلهما الذي هو الذبيح على الصحيح : إسماعيل بكر إبراهيم الخليل ، من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل ، ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق فإنما تلقاه من نقلة بني إسرائيل ، الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل ، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل .

فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر، وفي رواية الوحيد ، وأياً ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل ، ففي نص كتابهم : إن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون

(١) نفسه .

سنة، وإنما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل، فإسماعيل هو البكر لا محالة، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة " (١)

تحقق الوعد الإلهي بدخول بني إسرائيل أرض كنعان

إن سلمنا جدلاً – لا حقيقة – بأن حام بن نوح قد أخطأ ، وأن الرب قد أقام عهدًا بينه وبين سام ونسله من بعده أن يعطي له كل أرض كنعان ، وإن سلمنا جدلاً أن إسحاق هو الذبيح – وهو ليس كذلك – وأنه هو الوريث الشرعي للعهد الإلهي ، وإن غضضنا الطرف والعقل عن الطريقة التي حصل بها يعقوب على النبوة ، وعلى لقب إسرائيل ، وإن كذبنا توراة اليهود والتاريخ وصدقنا أن بني إسرائيل هم أول من سكن أرض كنعان ، وأنهم استطاعوا أن يحافظوا على نقائهم العرقي .

إن سلمنا بكل هذه الأساطير فإن الوعد الإلهي بتملك بني إسرائيل أرض كنعان قد تحقّق بالفعل في عهد يشوع ، وتوراة اليهود نفسها تنص على هذا وتؤكده .

" ٤٣فَأَعْطَى الرَّبُّ إِسْرَائِيلَ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَقْسَمَ أَنْ يُعْطِيَهَا لآبَائِهِمْ فَامْتَلَكُوهَا وَسَكَنُوا بِهَا. ٤٤فَأَرَاحَهُمُ الرَّبُّ حَوَالَيْهِمْ حَسَبَ كُلِّ مَا أَقْسَمَ لآبَائِهِمْ، وَلَمْ يَقِفْ قُدَّامَهُمْ رَجُلٌ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِهِمْ، بَلْ دَفَعَ الرَّبُّ جَمِيعَ أَعْدَائِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ. ٤٥لَمْ تَسْقُطْ كَلِمَةٌ مِنْ جَمِيعِ الْكَلاَمِ الصَّالِحِ الَّذِي كَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ، بَلِ الْكُلُّ صَارَ."(يشوع : ٢١)

فعلى الرغم مما فعله بنو إسرائيل مع الرب ونقضهم لعهده وعبادتهم سواه إلا أنه وفَّى لهم بوعده لآبائهم بدخول أرض كنعان تفضلا منه لا جزاءَ لهم ، فما فعلوه يستحق العقاب لا المكافأة .

" ١«اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ، أَنْتَ الْيَوْمَ عَابِرٌ الأُرْدُنَّ لِكَيْ تَدْخُلَ وَتَمْتَلِكَ شُعُوبًا أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ مِنْكَ، وَمُدُنًا عَظِيمَةً وَمُحَصَّنَةً إِلَى السَّمَاءِ. ٢قَوْمًا عِظَامًا وَطِوَالاً، بَنِي عَنَاقَ الَّذِينَ عَرَفْتَهُمْ وَسَمِعْتَ: مَنْ يَقِفُ فِي وَجْهِ بَنِي عَنَاقَ؟ ٣فَاعْلَمِ الْيَوْمَ أَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج١ ص ٢٢١

هُوَ الْعَابِرُ أَمَامَكَ نَارًا آكِلَةً. هُوَ يُبِيدُهُمْ وَيُذِلُّهُمْ أَمَامَكَ، فَتَطْرُدُهُمْ وَتُهْلِكُهُمْ سَرِيعًا كَمَا كَلَّمَكَ الرَّبُّ. ٤لاَ تَقُلْ فِي قَلْبِكَ حِينَ يَنْفِيهِمِ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ أَمَامِكَ قَائِلاً: لأَجْلِ بِرِّي أَدْخَلَنِي الرَّبُّ لأَمْتَلِكَ هذِهِ الأَرْضَ. وَلأَجْلِ إِثْمِ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ يَطْرُدُهُمُ الرَّبُّ مِنْ أَمَامِكَ. ٥لَيْسَ لأَجْلِ بِرِّكَ وَعَدَالَةِ قَلْبِكَ تَدْخُلُ لِتَمْتَلِكَ أَرْضَهُمْ، بَلْ لأَجْلِ إِثْمِ أُولئِكَ الشُّعُوبِ يَطْرُدُهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ أَمَامِكَ، وَلِكَيْ يَفِيَ بِالْكَلاَمِ الَّذِي أَقْسَمَ الرَّبُّ عَلَيْهِ لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. ٦فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لأَجْلِ بِرِّكَ يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ هذِهِ الأَرْضَ الْجَيِّدَةَ لِتَمْتَلِكَهَا، لأَنَّكَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ. " (التثنية : ٩)

فتغلب الإسرائيليين على الكنعانيين العرب وقهرهم لهم لم يكن بسبب صلاحهم وإقامتهم للتوراة إنما كان بسبب فساد العرب وتخليهم عن دينهم وعن السعي المخلص لدنياهم فابتلاهم الله تعالى باليهود عبدة العجل ، كما سيبتلي أحفادهم باليهود الصهاينة الذين أحسنوا الأخذ في أسباب التقدم ، والاستفادة من المشروع الغربي .

هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيَها اليهود والعرب جميعًا ، وهي أن انتصار اليهود لم يكن مرجعه طاعة الله وإنما أخذهم في أسباب التقدم ، وتخلي العرب – أكثرهم - عن الدين الصحيح ، وإهمالهم لأسباب التقدم والعدل والحرية .[1]

تحقق الوعد بالعودة

إن كل النصوص الخاصة بعودة اليهود من الشتات وتمكين " يهوه " لهم في أرض كنعان – على فرض صحتها – فهي خاصة بوعود " يهوه " ليهود السبي الآشوري والبابلي بالعودة إلى أورشليم وقد انتهت هذه الوعود بعودتهم على يد "قورش الأكبر" الإمبراطور الفارسي الذي أصدر عام ٥٣٨ ق . م مرسوماً بإعادة اليهود الذين وُطّنوا في بابل إلى فلسطين .

وهذا نص المرسوم كما جاء في كتاب عزرا .

([1]) لمزيد من التفصيل حول تاريخ اليهود ، الرجوع إلى كتاب " حقيقة اليهود والصهيونية ، وأوهام الأمة العربية " للمؤلف .

" ١وَفِي السَّنَةِ الأُولَى لِكُورَشَ مَلِكِ فَارِسَ عِنْدَ تَمَامِ كَلاَمِ الرَّبِّ بِفَمِ إِرْمِيَا، نَبَّهَ الرَّبُّ رُوحَ كُورَشَ مَلِكِ فَارِسَ فَأَطْلَقَ نِدَاءً فِي كُلِّ مَمْلَكَتِهِ وَبِالْكِتَابَةِ أَيْضًا قَائِلاً: ٢«هكَذَا قَالَ كُورَشُ مَلِكُ فَارِسَ: جَمِيعُ مَمَالِكِ الأَرْضِ دَفَعَهَا لِي الرَّبُّ إِلهُ السَّمَاءِ، وَهُوَ أَوْصَانِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا فِي أُورُشَلِيمَ الَّتِي فِي يَهُوذَا. ٣مَنْ مِنْكُمْ مِنْ كُلِّ شَعْبِهِ، لِيَكُنْ إِلهُهُ مَعَهُ، وَيَصْعَدْ إِلَى أُورُشَلِيمَ الَّتِي فِي يَهُوذَا فَيَبْنِيَ بَيْتَ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ. هُوَ الإِلهُ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ. ٤وَكُلُّ مَنْ بَقِيَ فِي أَحَدِ الأَمَاكِنِ حَيْثُ هُوَ مُتَغَرِّبٌ فَلْيُنْجِدْهُ أَهْلُ مَكَانِهِ بِفِضَّةٍ وَبِذَهَبٍ وَبِأَمْتِعَةٍ وَبِبَهَائِمَ مَعَ التَّبَرُّعِ لِبَيْتِ الرَّبِّ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ». " (عزرا : ١)

وعلى ذلك فقد تحقق لبني إسرائيل دخول أرض كنعان في زمن يشوع ، وإقامة مملكة يهودية في زمن داود ، وسليمان ، لما كفروا بالله وعبدوا آلهة أخرى حكم عليهم بالشتات فكان السبي البابلي والآشوري ووعدهم إن استقاموا على شرعه يعيدهم مرة أخرى لأرض الميعاد ، وقد تم هذا أيضا في القرن السادس قبل الميلاد على يد قورش الأكبر وبهذا تحققت جميع العهود لهم . [1]

لله ملك السموات والأرض

إن من العقائد الإيمانية المؤكدة في كل الأديان السماوية أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض وما فيهن من مخلوقات وعوالم وكائنات ما علمنا منها وما جهلنا، وأنه تعالى المتصرف في ملكه لا سلطان لأحد عليه ، ولا يشاركه في ملكه أحد .

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }(آل عمران : ١٨٩)

أي : هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع مِلكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه .[2]

---

(1) لمزيد من التفصيل حول أسطوة العودة راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب " أسطورة الخلاص الإلهي لبني إسرائيل " .

(2) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٣٦

قال الله تعالى : { للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا فِيهِنَّ } ولم يقل ومن فيهن فغلب غير العقلاء على العقلاء ، والسبب فيه التنبيه على أن كل المخلوقات مسخرون في قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره ، وهم في ذلك التسخير كالجمادات التي لا قدرة لها وكالبهائم التي لا عقل لها .(1)

إذن الأرض أرض الله وليس لجنس أو لقوم أو لشعب أو لأي كائن من كان شيء فيها . والله تعالى كتب في كتبه المقدسة التي أنزلها للناس أن الأرض يورثها لمن يشاء من عباده الصالحين تفضلاً منه جل وعلا .

ذكر الله تعالى هذا في كتبه المقدسة جميعها : التوراة المُنَزَّلة على موسى ، الزبور المُنَزَّل على داود ، والإنجيل المُنَزَّل على عيسى ، والقرآن الكريم المُنَزَّل على محمد صلى الله عليهم أجمعين .

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } (الحج : ١٠٥- ١٠٧)

واختلف المفسرون في تفسير المراد بالزبور ، والذكر . فمن المفسرين من جعل الزبور لفظ عام يشمل الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه جميعاً . ومنهم من جعله لفظ خاص بكتاب داود فحسب .

أما الذكر فقد وسَّع بعض المفسرين معناه فجعله أم الكتاب عند الله ، ومنهم من قصره على التوراة كتاب موسى .

وسواء أكان المقصود بالزبور والذكر بمعناهما الخاص كتابي (داود ، وموسى) أو بمعناهما العام الذي يشمل كل الكتب المنزلة على جميع الأنبياء فإنه من المؤكد أن وحي الله تعالى واحد في أصله لكل الأنبياء والمرسلين ، وليس هناك تناقض قط فيه، فالمُرسِل واحد جل في علاه .

(1) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ٦ ص ٢٠٦

{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِه وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } (النساء : ١٦٣) .

يقول تعالى : { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } (الحج : ١٠٥)

فما هي هذه الوراثة ؟ ومن هم الصالحون المستحقون ميراث الأرض ؟

المستحقون لميراث الأرض

إن موسى عليه السلام أكد لبني إسرائيل أن الله تعالى يورث الأرض لمن يشاء من عباده الصالحين لعمارتها .

يقول تعالى : { قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ } (الأعراف : ١٢٨) .

فليس هناك عهد إلهي خاص بجنس دون جنس أو أمة دون أمة كما ادَّعت اليهود إنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وفقًا لسننه في خلقه .

ولقد أكد الله تعالى لبني إسرائيل هذا مرة ثانية بعد موسى في الزبور المنزل على داود صاحب أول مملكة لبني إسرائيل في الأرض المقدسة .

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ }

(الحج : ١٠٥)

فالصالحون لعمارة الأرض هم ورثتها ، هذه هي سنة الله في خلقه التي لا استثناء فيها ولا محاباة .

فعندما آمن المسلمون بالله تعالى وأعدوا ما استطاعوا من قوة نصرهم الله تعالى في مواطن كثيرة ، وعندما خالفوا أوامر النبي هزموا في أحد ، وكذلك عندما أعْجب كثير من المسلمين بكثرتهم كادوا يهزمون في غزوة حنين .

{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } (التوبة: ٢٥)

إذن ليس هناك عهد أبدي بتملك أرض مقدسة أو غير مقدسة لشعب بسبب جنسه لا بسبب عمله وصلاحه كما قالت توراة اليهود .

" ٧وَأُقِيمُ عَهْدِي الأَبَدِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، فَأَكُونُ إِلَهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأُعْطِيكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً»." .(التكوين : ١٧)

فهذا الكلام بيِّن الوضع مخالف لميزان الحق الذي أنزله الله تعالى في كتبه المقدسة، ومخالف لميزان الحق الذي به قامت السموات والأرض .

يقول تعالى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } (الحديد : ٢٥) .

المقصود بالكتاب : الكتب المنزلة من عند الله تعالى على رسله .

" والميزان " أي العدل، قاله ابن عباس وأكثر المفسرين . والعدل يُسَمَّى ميزانًا، لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل. وقيل: الميزان ما بين في الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به . وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه .

وهذه الأقوال متقاربة المعنى . (1)

وقوله تعالى : { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } (الرحمن : ٧- ٩)

فشريعة الله هي ميزان العدل الإلهي الذي يجب على كل إنسان أن يزن به عمله : قولا أو فعلا فإن فعل ذلك فقد استقام أمر دينه و دنياه واستحق ميراث الأرض و السماء ورضوان من الله أكبر .

([1]) تفسير القرطبي ج١٦ ص ١٥

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } (الحديد : ٢٥)

وشريعة الله تعالى هي القانون الذي يجب أن نحتكم إليه في تعاملنا مع الناس كل الناس .

{ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (الشعراء : ١٨٢)

كما أمر الله تعالى أن يكون ميزان العدل مطلقًا لا يشمل اليهود دون الأميين ولا الأقرباء دون الغرباء ، ولا الأغنياء دون الفقراء ، ولا الضعفاء دون الشرفاء ، إنما الكل متساوون أمام ميزان العدل الإلهى سواء بسواء .

{يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للّه شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }(المائدة:٨)

لماذا وضع الله الميزان ؟

جعل الله تعالى الحواس الخمس وسيلة ليدرك بها الإنسان حقائق الأشياء الظاهرة لكن الحواس تخدع الإنسان أحيانا فالعين ترى النجوم صغيرة ، والأرض ثابتة ، والبذور ميتة ، لذا جعل الله تعالى العقل مصححا لخداع الحواس فعن طريق العقل توصل الإنسان إلى أن النجوم أكبر من حجمها الذي تراه العين ملايين المرات ، وأن الأرض تدور حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة ، وحول الشمس مرة كل ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع ، والبذور تحتوي على أجنة حية ، وهكذا جعل الله تعالى العقل مقوما للحواس ، ولكن العقل رغم أنه أداة من أدوات المعرفة و الهداية للإنسان إلا إنه محدود القدرة ، مقيد بالزمان والمكان ، متأثر بما حوله من مؤثرات شتى : معارف متباينة ، وأفكار متضاربة ، وعقائد متفاوتة ، ومصالح متعارضة ، وأهواء متفرقة .

إن للعقل البشري وزنه وقيمته هذا حق . . ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات ، متأثراً بشتى المؤثرات . . وليس هناك ما

يسمى « العقل البشري » كمدلول مطلق! إنما هناك عقلي وعقلك ، وعقل فلان وعلان ، وعقول هذه المجموعة من البشر ، في مكان ما وفي زمان ما . . وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى؛ تميل بها من هنا ، وتميل بها من هناك .

ولما كان العقل البشري يتسم بآفتين : القصور ، والهوى فلا بد من ميزان ثابت ، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة؛ فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها . ومدى الشطط والغلو ، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات . وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان ، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان . . الميزان الثابت ، الذي لا يميل مع الهوى ، ولا يتأثر بشتى المؤثرات .

ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين . . فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها . فتختل جميع القيم . . ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم .

والله يضع هذا الميزان للبشر ، للأمانة والعدل ، ولسائر القِيَم ، وسائر الأحكام ، وسائر أوجه النشاط ، في كل حقل من حقول الحياة . (1)

لذا فقد جعل الله تعالى شريعته هي المقومة للعقل والحواس جميعًا والهادي الناس سواء السبيل في الدنيا والآخرة ، وشريعة الله تعالى تتسم بالكمال والإحاطة ، ومنزهة عن الهوى وسائر المؤثرات .

{ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ * وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } (الأنعام : ٥٦ – ٥٩)

(1) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج٢ ص١٦٢

والنفوس تأبى الغبن ولا يرضى أحد بأن يغلبه الآخر ولو في الشيء اليسير ، ويرى أن ذلك استهانة به فلا يتركه لخصمه لغلبة ، فلا أحد يذهب إلى أن خصمه يغلبه فلولا التبيين ثم التساوي لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء كما وقع عند الجهل وزوال العقل والسكر ، فكما أن العقل والعلم صارا سبباً لبقاء عمارة العالم ، فكذلك العدل في الحكمة سبب ، وأخص الأسباب الميزان فهو نعمة كاملة ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمته لكثرته وسهولة الوصول إليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما . (1)

ميراث الأرض مرهون بالصلاح

وفي توراة اليهود ما يفيد أن نصر الله مشروط بطاعته ، وأن ميراث الأرض مرهون بالصلاح . فمن بين الميثاق المبرم بين " يهوه " وشعبه عقوبات العصيان التي يقول الرب فيها لبني إسرائيل :

" ١٤«لكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لِي وَلَمْ تَعْمَلُوا كُلَّ هذِهِ الْوَصَايَا، ١٥وَإِنْ رَفَضْتُمْ فَرَائِضِي وَكَرِهَتْ أَنْفُسُكُمْ أَحْكَامِي، فَمَا عَمِلْتُمْ كُلَّ وَصَايَايَ، بَلْ نَكَثْتُمْ مِيثَاقِي، ١٦فَإِنِّي أَعْمَلُ هذِهِ بِكُمْ: أُسَلِّطُ عَلَيْكُمْ رُعْبًا وَسِلا وَحُمَّى تُفْنِي الْعَيْنَيْنِ وَتُتْلِفُ النَّفْسَ. وَتَزْرَعُونَ بَاطِلاً زَرْعَكُمْ فَيَأْكُلُهُ أَعْدَاؤُكُمْ. ١٧وَأَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّكُمْ فَتَنْهَزِمُونَ أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْكُمْ مُبْغِضُوكُمْ، وَتَهْرُبُونَ وَلَيْسَ مَنْ يَطْرُدُكُمْ." (اللاويين : ٢٦)

الصهيونية والديانة اليهودية

إن الصهيونية تعد انتهاكًا صارخًا لوصايا الرب لشعب إسرائيل ، فإذا كانت وصايا إله إسرائيل تدعو إلى العمل بشريعته وهدي أنبيائه لاستحقاق اختياره وتحقيق وعوده والخلاص على يد الماشيخ ، فإن الصهيونية استبدلت بالوصايا الإلهية قومية عنصرية ، وبإله إسرائيل دولة إسرائيل ، وبهداية الأنبياء العظام ضلال السياسيين اللئام ، وبانتظار الماشيخ المخلص السعي للحصول على الخلاص بأنفسهم .

(1) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ١٥ ص ٥٧

وإليك طائفة من أقوال اليهود التي تؤكد تعارض الصهيونية مع الديانة اليهودية وخروجها على تعاليم أنبياء بني إسرائيل العظماء ، واستخدامها العنف في إنشاء قومية لليهود .

يقول مارتن بوبر (أحد الأصوات اليهودية الكبرى في القرن العشرين) في بيانه أمام المؤتمر الصهيوني الثاني عشر المعقود في كارلسباد في ٥ سبتمبر ١٩٢١ : " لقد أقتلِعَت الديانة اليهودية من جذورها ، وهذا هو جوهر المرض الذي كانت أعراضه هي ولادة القومية اليهودية في منتصف القرن التاسع عشر . وهذا الشكل الجديد للرغبة في الأرض هي الخَلْفِيَّة التي آذنت بما استعارته اليهودية القومية الحديثة من القومية الحديثة في الغرب .

وما هو دور فكرة " اختيار إسرائيل " في كل ذلك ؟!

فالاختيار لا يعني شعورا بالسمو ، ولكنه يشير إلى معنى المصير ،وهذا الشعور لا يولد من مقارنة مع الآخرين ، ولكن من رسالة ومن منطق مسئولية إنجاز مهمة لم يفتأ الأنبياء يذكّرون بها : " إنكم إذا ما تفاخرتم بأنكم مختارون بدلاً من أن تعيشوا في طاعة الله ، فإن هذا ضرب من الغدر والخيانة " .

وختم حديثه بذكر تلك " الأزمة القومية " للصهيونية السياسية التي تعتبر تحريفًا لروحانية الديانة اليهودية قائلاً : . وكنا نأمل في أن ننقذ القومية اليهودية من خطأ تحويل شعب إلى صنم معبود و لكننا قد أخفقنا " . [1]

ويقول جواس ماجنيس رئيس الجامعة العبرية في القدس عند افتتاح هذه الجامعة في عام ١٩٤٦ والتي رأسها منذ عشرين سنة " إن الصوت اليهودي الجديد يتكلم عبر فوهة البنادق .. وهذه التوراة الجديدة لأرض إسرائيل . لقد تكبل العالم بقيود جنون القوة المادية . وليحفظنا الرب الآن من اقتياد اليهودية وشعب إسرائيل إلى هذا

(1) مارتن بوبر " إسرائيل والعالم " نيويورك ص ٢٦٣ نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " ص ٢٤

الجنون . إنها يهودية ملحدة تلك التي طعنت على جزء كبير من الشتات القوي . وكنا نعتقد زمن الصهيونية الرومانتيكية ، أن صهيون ينبغي افتداؤه بالاستقامة والنزاهة . ويتحمل يهود أمريكا مسئولية هذه الغلطة وهذا التحول .. حتى من لم يوافقوا على تصرفات الإدارة الملحدة ولكنهم ظلوا قاعدين مكتوفي الأيدي . إن تخدير المعنى الأخلاقي يؤدي إلى الضمور والهزال " (1)

والواقع أنه منذ إعلان " برنامج بلتيمور " عام ١٩٤٢ والذي قضى بإنشاء دولة يهودية في فلسطين قد حصل القادة الصهاينة في أمريكا على أكبر حامٍ لهم وهو الولايات المتحدة الأمريكية ، وقضت المنظمة الصهيونية العالمية على معارضة اليهود الأمناء على التقاليد الروحية لأنبياء إسرائيل ، وطالبت بإنشاء ليس فحسب " وطن قومي يهودي في فلسطين " طبقا لنصوص (بل وروح) إعلان بلفور ، ولكن بإنشاء دولة يهودية في فلسطين .

وقد سبق لأبرت أينشتاين (ومن المعروف أن أينشتاين رَفض قبول منصب رئيس الدولة الصهيونية حينما عُرض عليه) أن أدان في عام ١٩٣٨ توجه الصهاينة إلى إنشاء دولة يهودية ، والتخلي عن الروحانية اليهودية التي نادى بها أنبياء بني إسرائيل حيث قال : " إني أود أن يتم اتفاق مقبول مع العرب على أساس العيش المشترك ، وأفضل ذلك على خلق دولة يهودية . إذا وضعنا الاعتبارات العملية جانبا فإن إدراكي للطبيعة الأساسية لليهودية يمنعني من القبول بدولة يهودية لها حدودها وجيشها ووسائل سلطتها الزمنية مهما كانت هذه السلطة ضئيلة .

إني أخشى الضرر الجوهري الذي سيلحقه ذلك بالديانة اليهودية " (2)

---

(1) نورمان بتويش " من أجل صهيون " منشورات الجمعية اليهودية في أمريكا ١٩٥٤ص ١٣١ نقلا عن " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٢٥ .

(2) ألبرت أينشتين "من سنواتي الأخيرة" نقلا عن فيصل أبو خضرا " تاريخ المسالة الفلسطينية " ص ٥٠

لقد كان انتصار القومية الصهيونية التي تقوم على تقديس الذات ورفض الآخر هزيمة لليهودية الروحانية التي تدعو إلى إقامة مملكة صهيون بالاستقامة على وصايا الرب والتحلي بنزاهة النفس .

ويقول الأستاذ أندرية نهير في كتابه " جوهر النبوءة " إن إسرائيل هي وبامتياز علامة التاريخ الإلهي في العالم ، فإسرائيل هي محور العالم ، وهي العصب والمركز والقلب " .

ومثل هذه العبارات توحي وبشكل فاضح " بالأسطورة الآرية " التي أسست أيديولوجيتها الجرمانية والهتلرية على هذا الفكر العنصري الذي يقف على نقيض تعاليم الأنبياء .

والاستبداد بالرأي يلغي الحوار ويحول دونه : فلا يمكن التحاور مع هتلر ولا مع بيجين ، لأن سموهم الجنسي أو تحالفهم القَسْري مع الإله ، لا يترك أي مجال للآخر.

ولأننا نعي أنه في عصرنا هذا لا بديل عن الحوار أو الحرب ، وأن الحوار يقتضي وهو ما لا نمل من ترديده أن يعي كل إنسان منذ البداية ما ينقصه من إيمان ، وأنه في حاجة إلى الآخر لسد هذا الفراغ لديه ، وهو شرط كل تفوق على الذات وكل رغبة في الكمال (وهو روح كل إيمان حي) .

فإن مختاراتنا هذه عن الجريمة الصهيونية يسير في امتداد جهود هؤلاء اليهود الذين حاولوا الدفاع عن اليهودية الروحانية ومناصرتها ضد الصهيونية القومية العنصرية .

وما يغذي معاداة الصهيونية ليس نقد سياسة العدوان والإفك والدم التي تمارسها الصهيونية الإسرائيلية بل التأييد غير المشروط لهذه السياسة التي أضحت لا تحتفظ من التقاليد العظيمة لليهودية سوى ما يبرر هذه السياسة عن طريق التفسير الحرفي ، وما يضعها فوق كل قانون دولي بإضفاء القداسة عليها بواسطة أساطير الغد واليوم[1]

([1]) رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٠

سبب تغلب الإسرائيليين على العرب

يدعي اليهود الصهاينة أن نجاحهم في إقامة دولة إسرائيل وهزيمة أعدائهم من العرب يعد دليلاً دامغاً على صلاحهم فها هو الرب ينصرهم ويطرد أعداءهم من أمامهم ، والحقيقة بخلاف هذا فتغلب الإسرائيليين على العرب وقهرهم لهم في التاريخ المعاصر ، وتمكنهم من إقامة دولة إسرائيل لم يكن بسبب صلاح اليهود وإقامتهم للتوراة إنما كان بسبب فساد العرب وتخليهم عن دينهم وعن السعي المخلص لدنياهم .

هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها اليهود والعرب جميعًا ، وهي أن انتصار اليهود الصهاينة لم يكن مرجعه صدق أساطيرهم ، ولا صحة اعتقادهم إنما نجاحهم في التحالف مع الدول الغربية الاستعمارية ابتداء بانجلترا وانتهاء بأمريكا ، وقبولهم أن يكونوا أداة لتنفيذ المشروع الصهيوني الذي تتعهد بمقتضاه الحضارة الغربية بأن تقوم بنقل اليهود إلى فلسطين وتأسيس دولة وظيفية لهم فيها، ورعايتها وحمايتها وضمان بقائها واستمرارها نظير أن يقوم اليهود على خدمة مصالح الغرب .

وفي المقابل تخلّي العرب – أكثرهم - عن الدين الصحيح ، وأهملوا أسباب التقدم والعدل والحرية والإصلاح . واتصفوا بالتخلف والظلم ، والفساد .

وتوراة اليهود نفسها تصرح بهذا .

" لا تقولوا لأنفسكم بعد أن ينفيهم الرب من أمامكم : " لقد أدخَلَنَا الرب لامتلاك هذه الأرض بفضل صلاحنا " . إنما من أجل كثرة إثمهم يطردهم الرب إلهكم من أمامكم . إذ ليس بفضل صلاحكم واستقامتكم تدخلون لامتلاك أرضهم ، إنما من أجل إثمهم يطردهم الرب من أمامكم " (التثنية : ٩)

والقرآن الكريم يصرح بهذا في مواضع كثيرة منها قوله تعالى : " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (النور: ٥٥)

فيبين الله تعالى في هذه الآية المباركة أن الله وعد – ومن أصدق من الله قيلاً – الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقاموا بما فرضه الله عليهم من عبادة له جل وعلا وتعمير لأرضه وعدهم بأن يجعلهم خلفاء الأرض ويمكن لهم دين الإسلام ويفضلهم على العالمين ، كما حدث لبني إسرائيل ، وللمسلمين من قبل ، بشرط أن يعبدوا الله كما أمر في كتابه وسنة نبيه .

{ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون } أي فمن خرج عن طاعة الله بعد ذلك، وارتكب ما نهى الله عنه فأولئك لا نصر لهم من الله " فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بأوامر الله عزَّ وجلَّ، وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا سائر العباد والبلاد، ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهروهم بحسبهم " (١)

فبإثمنا لا بصلاحهم عاقبنا الله بهم فهم جبناء تؤثر فيهم أدنى مقاومة ، وتفزعهم أية قوة ، وتاريخهم يشهد بذلك ، وحرب السادس من أكتوبر ليست منَّا ببعيد .

***

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٨٠